اللغة مقوما من مقومات العمران البشري في القرآن الكريم

محمد عبد الله محمد الشيخ

باحث في سلك الدكتوراه، تخصص لسانيات، كلية الآداب..

جامعة عبد المالك السعدي (المغرب)

mcheikh.mabdellahi@gmail.com

الملخص

هذه الورقة استقراء لنصوص القرآن الكريم، يستخرج من آياته تصوره الشامل للغة، الذي يبرز ارتباطها الوجودي بالإنسان، وارتباطه بها كذلك، فلأجل تكريمه وتمكينه من أسباب صلاح معاشه ومعاده علمها اللهُ آدمَ عليه السلام، وأرسل كل رسول "بلسان قومه ليبين لهم"... وبفضلها كان الإنسان مُبينا قادرا على الفهم والإفهام، مهيأ بذلك لنيل العلوم واكتسابها، وتبادل الخبرات، والتصرف في شؤون العمران.

This paper is an extrapolation of the texts of the Qur'an, extracting from its verses its comprehensive conception of the language, which highlights the existential relationship between man and language; so it is for the sake of honoring man and empowering him with the reasons for the goodness of his livelihood and his return in afterlife; God taught the language to the father of humans: Adam - peace be upon him – and sent every messenger "with the language of his people, in

order that he might make (the Message) clear for them". And because of language, man was able to understand and make others understand, and this enabled him to acquire sciences, exchange experiences, and build civilization.

تمهيد

خلق الله تعالى الإنسان وعلمه البيان، وجعل آيةَ بيانه (اللغة) سرا من أسرار الخلق، ومعجزة من معجزات التكوين، وآلة طيعة تحقق أغراض هذا الإنسان، وتلبي حاجاته في التعاون والتواصل، وتحمل أفكاره وتجارب حضارته إلى آفاق وغايات لم تكن لتبلغها بغير هذه اللغة، التي جعلت تبادل الأفكار والمعارف بين الإنسان وأبناء زمانه سهلا ميسورا، بل فوق ذلك مكنته من الاتصال بالأولين والآخرين عبر قراءة وتدوين المعارف والخبرات، وتوارثها جيلا بعد جيل.

وتأسيسا على هذه الحقائق الحاضرة في مسار الحضارة البشرية، والبارزة في القرآن الكريم – كما سنرى قريبا – تأتي هذه الورقة لتستقرئ نصوص الوحي القرآني المنزل، متتبعة حضور اللغة كمقوم من مقومات العمران البشري، ومتلمسة دلائل امتنان الله على الإنسان بها، حيث جعلها معجزة الخلق وسر التكريم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا... ﴾[1]، وأبرزها آية لتنوع الخليقة واختلافها: (...وَٱخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ...﴾[2]، وامتن بها آلة للتعلم ووسيلة لنيل العلوم: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلقَلَمِ عَلَّمَ ٱلإِنسَانَ مَا لَم يَعلَم﴾[3]، وعلى هذا تؤسس الورقة ما ستصل إليه من محورية دور اللغة وركنيتها بين مقومات العمران في الحضارة الإسلامية التي نشأت وازدرهت بفضل هذا القرآن، ثم تختم المقال ببيان موجز لخصوصية اللسان العربي،

[1] سورة البقرة، الآية ٣١
[2] سورة الروم، الاية ٢٢
[3] سورة العلق، الآيات: ٣ – ٤ – ٥

ودلالة التنويه به في القرآن الكريم، الذي نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[٤] وأثر ذلك في نهضة وعلو شأن هذه الحضارة.

وقبل الدخول في صلب الموضوع من المهم التمهيد – بإيجاز يقتضيه المقام – بتحديد المقصود من "اللغة"، ومن مفهوم "مقومات العمران"، حيث تكون هذه المقومات محور دوران هذه الورقة حول نقطة مركزية هي "اللغة".

أما "اللغة" فالمقصود من إطلاقها ما اطرد في العرف البشري من تعريفها "بأنها جملة رموز متواترة بين أفراد المجموعة البشرية التي تتحول بفعل الرابط اللغوي إلى مجموعة فكرية حضارية"[٥]، فهي بهذا خاصية من خصائص الإنسان، يحقق بفضلها حاجات لا تنقضي من التفكير والتواصل والتعاون واكتساب العلوم... وغير ذلك.

وبالنسبة لمفهوم "مقومات العمران" فهو يتألف من مفردتين: الأولى هي "المقومات"، ويشيع استخدامها في العربية المعاصرة للتعبير عن العَنَاصِر والعَوامل الأَسَاسِيَّة التي بها تقوم الأشياء؛ فهي "كلّ ما يتألّف أو يتركّب منه جسم أو جهاز أو مشروع من عناصر أساسيّة تسهم في قيامه ووجوده وفاعليّته.. كما نقول: "مُقَوِّمات الحياة / الجمال – المقوِّمات العمرانيّة[٦]".

وأما الثانية فهي "العمران"، ويتحدد مفهومه كما أسس له ابن خلدون في أنه "التّساكن والتّنازل في مصر أو حلّة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم (البشر) من التّعاون على المعاش[٧]"، إذ أن "الاجتماع الإنساني ضروري.. وتعبير الحكماء عن ذلك بقولهم الإنسان مدنيّ بالطّبع أي لا بدّ له من الاجتماع الّذي هو

[٤] سورة الشعراء، الآية ١٩٥

[٥] اللسانيات وأسسها المعرفية، ص٢٥

[٦] ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ج٣/ص١٨٧٩ مادة ق و م.

[٧] مقدمة ابن خلدون ج١/ص٥٣

المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران"[٨]، وبهذا فكلما يترتب على اجتماع الناس بعضهم مع بعض، وتعاونهم في ما بينهم، من مظاهر اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية... ومن أفكار وقيم تؤطر ذلك الاجتماع وتنظمه.. كل ذلك داخل في المفهوم الواسع لكلمة "العمران"، الذي يتلخص مفهومه عند ابن خلدون في "الاجتماع الإنساني القائم على صلة البشر بالأرض المعمورة ثم على صلة بعض البشر ببعض في المكان الواحد أو في الأمكنة المتفرقة[٩]"، فهو بذلك يتداخل مع المفهوم المعاصر لكلمة "الحضارة" الذي "توسع عند المؤرخين والباحثين الاجتماعيين حتى صار شاملًا لجميع أنواع التقدم والرقي الإنسانيين[١٠]".

وبغض النظر عن التفاصيل الكثيرة العابرة للتخصصات، التي تتعلق بالعمران البشري والحضارة الإنسانية، ومختلف أبعاد ذلك وعناصره ومقوماته... فالذي يشغل البال من كل ذلك في هذا السياق، هو عنصر اللغة، كما نوه به القرآن الكريم، ورفعه مكانا عليا بين أسباب تكريم الإنسان، ومقومات عمارته للأرض وقيامه فيها بواجب الاستخلاف.

وسيتم في هذه الورقة تناول ذلك من خلال محاور أربعة، كلها تفصل وتبين الأبعاد المختلفة لذكر اللغة في القرآن الكريم، وحضورها بين المقومات الضرورية للوجود والعمران البشري، فيتعرض الأول منها للغة في قصة الخلق والنشأة الأولى، وكيف جعل الله العلم بها سببا من أسباب تكريم الإنسان وأهليته للاستخلاف في الأرض، ويستعرض الثاني تنويه القرآن باللغة؛ نعمةَ بيان باللسان والقلم، ووسيلةَ اكتساب للعلم وتدوينه، ويأتي الثالث على ذكر القرآن الكريم لعنصر

[٨] نفسه، ج١/ص٥٤

[٩] تاريخ العلوم عند العرب، ص٤٥٠

[١٠] الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، ص١٩

"اللغة" بين مظاهر تنوع واختلاف ألوان وألسنة الخليقة، الدال على وحدانية الخالق وعظمته، أما الرابع فيختم القول بذكر خصوصية اللسان العربي في القرآن الكريم، والشرف الذي حازه بسبب صلته بالقرآن، وأثر ذلك في نهضة حضارة الإسلام وانتشار لغته العربية.

أولا: معجزة الخلق وسبب التكريم

اختص الله الإنسان بملكة اللغة، وجعلها معجزة من معجزات تكوينه، وسرا من أسرار تكريمه، وأظهر هذا التكريم وتلك المعجزة في أول حدث في تاريخ الوجود البشري، صورته قصة النشأة الأولى للخلق، في أول سورة البقرة، التي جاء فيها: ﴿...وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلأَسمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى ٱلمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنبِـُٔونِي بِأَسمَاءِ هَٰٓؤُلَاءِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ...﴾[١١]، فقد تواتر علماء التفسير في القديم والحديث على تفسير هذه الآية بأن الله عز وجل بين للملائكة فضل آدم عليه السلام وأهليته للخلافة في الأرض، بأن اختصه دونهم فعلمه "اللغة"، ومكنه بها من تسمية الأشياء بأسمائها، وإن اختلفت عباراتهم في تفصيل ذلك.

فهذا ابن جرير الطبري يروي عن ابن عباس، قوله: "علم الله آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسانٌ ودابة، وأرض وَسهل وبحر وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها..."[١٢]، وروى عن مجاهد وغيره: علمه اسم كل شيء: هذه الخيل، وهذه البغال والإبل والجنّ والوحش، وجعل يسمي كل شيء باسمه"[١٣]، وهذا القرطبي يؤكد هذا المعنى بما ورد "في البخاري من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: (ويجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم، فيقولون:

[١١] سورة البقرة، الآية ٣١

[١٢] تفسير الطبري، ج١/ص٥١٤

[١٣] ينظر: المصدر السابق نفسه، ج١/ص٥١٧ وما قبلها

أنت أبو الناس؛ خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء)[١٤].

وكذلك نجد عند النسفي، الذي قال: إن ﴿الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ المذكورة في الآية هي "أسماء المسميات، فحُذف المضاف إليه لكونه معلوما مدلولا عليه بذكر الأسماء، إذ الإسم يدل على المسمى، ولا يصح أن يُقدّر: وعلم آدم مسميات الأسماء؛ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، لأن التعليم تعلق بالأسماء لا بالمسميات؛ لقوله تعالى: أنبئوني بأسماء هؤلاء[١٥]".

ولم يقتصر الأمر على مجرد التعليم؛ تعليم الأسماء، وما تضمنه ذلك من إعجاز في الخلق والتكوين، بل كان هذا التعليم —كما يذكر المفسرون – سببا مباشرا في تكريم بني آدم وأمر الملائكة بالسجود تعظيما لأبيهم، وفوق ذلك كان هذا الأمر سببا لأهلية آدم وذريته لنيل شرف الاستخلاف في الأرض، والاستئثار به دون سائر الخلق، فقد "أمره الله أن يُعْلِمَهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيها على فضله وعلو شأنه، فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسْجَدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلموا منه، فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له، مختصا بالعلم[١٦]"، "وإنما استنبأهم – بقوله: "أنبئوني بأسماء هؤلاء" – وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت (فقال أنبئوني) أي أخبروني (بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) في زعمكم أني أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء؛ وفيه رد عليهم وبيان أن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله أن

[١٤] تفسير القرطبي، ج١/ص٢٨٢

[١٥] تفسير النسفي، ج١/ص٧٨-٧٩

[١٦] تفسير القرطبي، ج١/ص٢٨٨

يستخلفوا"[١٧]، وبهذا كما يقول الفخر الرازي "بين تعالى للملائكة مِن فضلِ آدم عليه السلام ما لم يكن من ذلك معلوما لهم، وذلك بأن علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم عليهم ليَظهر بذلك كمالُ فضله وقصورُهم عنه في العلم"[١٨].

ولعل كثيرا من المفسرين قد هان عندهم – يقول الطاهر بن عاشور – "أن يكون تفضيل آدم بتعليم الله متعلقا بمعرفة عدد من الألفاظ الدالة على المعاني الموجودة، فراموا تعظيم هذا التعليم بتوسيعه، وغفلوا عن موقع العبرة ومِلاك الفضيلة، وهو إيجاد هاته القوة العظيمة التي كان أولها تعليم تلك الأسماء، ولذلك كان إظهار عجز الملائكة عن لحاق هذا الشأو بعدم تعليمهم لشيء من الأسماء، ولو كانت المزية والتفاضل في تعليم آدم جميع ما سيكون من الأسماء في اللغات لكفى في إظهار عجز الملائكة عدم تعليمهم لجمهرة الأسماء، وإنما علم آدم أسماء الموجودات يومئذ كلها ليكون إنباؤه الملائكة بها أبهر لهم في فضيلته[١٩]."

وهكذا كان تعلم هذه اللغة على المشهور من أقوال المفسرين سببا في تكريم آدم عليه السلام المؤسس لتكريم ذريته من بعده، وتشريفهم على سائر الخلق بأمانة الاستخلاف في الأرض، وكانت بذلك "قصة آدم عليه السلام في القرآن هي قصة الانسان الأول، الذي ارتقى بالخلق السوي إلى منزلة العقل والإرادة، وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلائق الأرض، من ذي حياة وغير حياة..."[٢٠]، "وهذا التفضيل للإنسان والإعلاء لشأنه بين سائر المخلوقات أظهرته قصة خلق آدم، وما وقع فيها من أحداث[٢١]".

[١٧]تفسير النسفي، ج١/ص٧٩

[١٨]تفسير فخر الدين الرازي ج٢/ص٣٩٦

[١٩]التحرير والتنوير، ج١/ص٤١٠-٤١١

[٢٠]ينظر: الإنسان في القرآن، ص٥٢

[٢١]خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص٥٦

ولعل هذا يصلح –كما اقترح بعضهم – أساسا لإسلامية المعرفة: "إذا تذكرنا أن الله جل في علاه هو مبدع هذا الكون الكبير.. وتذكرنا معه لحظة انطلاق آدم عليه السلام إلى العالم وقد علم الأسماء كلها لكي يمارس مهمته فيها.. وعرفنا أن تعامل الإنسان مع الوجود من حوله كشفا وتنقيبا، وتعلما وتعليما، ونشرا وتوصيلا.. أي نشاطه المعرفي عموما لا بد أن يتشكل في إطاره الإيماني الصحيح[٢٢]"، المنسجم مع قصة النشأة الأولى، كما جسدتها قصة سجود الملائكة لآدم أبي البشر.

ثانيا: نعمة البيان ووسيلة التعليم

امتن الله تعالى في مواضع عديدة من القرآن الكريم بنعمة تمكين الإنسان من آلة اللغة التي بها يُبين عن المعاني بالألفاظ، وعن طريقها يعبر عن ذاته وما تمور به نفسه أو يعتمل في فكره من مشاعر وأفكار، وبفضلها يكتسب المعارف ويتوارث الخبرات ويتعلم ما لم يكن يعلم.

وفي مقدمة المواضع التي ورد فيها التنويه بهذا الأمر: الآيات الأولى من سورة العلق التي تواتر واشتهر القول بأنها أول ما نزل من القرآن، ومثل ذلك القسَم بالقلم في أول السورة التي سميت به، وهي من أول ما نزل كذلك، روى الطبري "عن مجاهد، قال: إن أوّل سورة أُنزلت: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ثم ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾، يقول تعالى ذكره: علَّم الإنسان الخطّ بالقلم، ولم يكن يَعْلَمُهُ، مع أشياء غير ذلك، مما علّمَه ولم يَكُن يعلمه[٢٣]"، ومثل هذين الموضعين ما ورد في مطلع سورة الرحمن من تنويه بما علم اللهُ الإنسانَ من البيان، الذي "تميز به من سائر الحيوان، وهو المنطق الفصيح الْمُعرِب عما في الضمير"[٢٤]"، وغير خاف ما في هذا من تنويه بارتباط اللغة بالفكر، وارتباطها كذلك

[٢٢]مدخل إلى إسلامية المعرفة، ص١٠

[٢٣]تفسير الطبري، ج٢٤/ص٥٣٢

[٢٤]ينظر: تفسير النسفي، ج٣/ص٤٠٩

بالعلم والتعليم، فاللغة في هذه المواضع من القرآن الكريم هي البيان المعرِب عن ما في الضمير بألفاظ مسموعة مفهومة، ينطقها اللسان وتطرق الأسماع، أو بحروف مقروءة مبينة عن الأفكار والمعاني والمعارف، يخطها القلم ويكتبها في الصحف والرقاع.

إن التنويه بشأن اللغة في القرآن يمكن القول بهذا الاعتبار إنه أخذ بعدين، أحدهما عام والآخر خاص، فأما العام منهما فما ورد في مطلع سورة الرحمن، حيث "عدد الله –عز وجل – آلاءه، فأراد أن يقدم منها أول شيء: نعمة الدين، وقدم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها، وهو إنعامه بالقرآن، وتنزيله، وتعليمه، وأخر ذكر خلق الإنسان.. ليعلم أنه إنما خلقه للدين... ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان[٢٥]، فقال تعالى: "عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" وهو "الكلام والفهم... قال السدي: علّم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به"[٢٦].

إن قوله تعالى في هذا الموضع: ﴿علمه البيان﴾ "..تضمن الاعتبار بنعمة الإبانة عن المراد والامتنان بها بعد الامتنان بنعمة الإيجاد، أي: عَلّم جنس الإنسان أن يُبين عما في نفسه ليُفيدَه غيره ويستفيد هو. والبيان: الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض... ومعنى تعليم اللهِ الإنسانَ البيانَ: أنه خلق فيه الاستعداد لعلم ذلك وألهمه وضع اللغة للتعارف..."[٢٧]

وتبعا لهذا التنويه العام بنعمة "البيان"، وفضيلة النطق التي اختص بها الإنسان، فقد أعلن الله تعالى في القرآن أن إرسال الرسل ناطقين بألسنة أقوامهم كان سنة جارية في الأمم السابقة واللاحقة لا تبديل لها، قال تعالى: ﴿وما أرسَلْنَا مِن رَسولٍ إلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾ أي "وما أرسلنا إلى أمة من الأمم،

[٢٥] ينظر: المصدر السابق، ج٣/ص٤٠٩

[٢٦] ينظر: تفسير القرطبي، ج١٧/ص١٥٢-١٥٣

[٢٧] التحرير والتنوير، ج٢٧/ص٢٣٣

يا محمد، من قبلك ومن قبل قومك، رسولا إلا بلسان الأمة التي أرسلناه إليها ولغتهم، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ يقول: ليُفهِمَهم ما أرسلَه الله بهِ إليهم من أمره ونهيه[٢٨]"، فكما علم الله كل قوم لسانا يتخاطبون به، فقد خاطب كل قوم باللسان الذي علّمهم، ليكون ذلك أبلغ في البيان وإقامة الحجة عليهم، "لأن مدار الأمر –كما يقول الجاحظ – على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد[٢٩]".

ولا يقف الأمر على هذا التنويه العام بنعمة البيان وما تتضمنه من نعم الكلام والكتابة وغيرها، بل ورد كذلك تنويه خاص بالقلم وما يخطه من كتابة في أول آيات نزلت من القرآن الكريم، ذلك أن "في الكتابة فضائل جمة، وهي من جملة البيان، والبيان مما اختص به الآدمي[٣٠]"، فقال تعالى: ﴿اقرأ وربُّكَ الأكرَمُ الذي عَلّمَ بالْقَلَم عَلّمَ الإنْسانَ مَا لم يَعْلَم﴾؛ روى الطبري "عن قتادة قال: القلم نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقم ولم يصلح عيش"[٣١].

وقال القرطبي معقبا على هذه الآية إن الله تعالى "نبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا...[٣٢]"، وأورد من الأقوال في قوله ﴿عَلَّمَ الإنْسانَ..﴾ "أنه أدخل كلّ من كتب بالقلم، لأنه ما علِم إلا بتعليم الله سبحانه، وجمع بذلك نعمته عليه في خلقه، وبين نعمته عليه في تعليمه، استكمالا للنعمة عليه"[٣٣].

[٢٨] نفسه، ج١٣/ص٥٩٢

[٢٩] البيان والتبيين، ج١/ص٣٤

[٣٠] ينظر: تفسير القرطبي، ج٢٠/ص١٢١

[٣١] تفسير الطبري، ج٢٤/ص٥٣٢

[٣٢] تفسير القرطبي، ج٢٠/ص١٢٠

[٣٣] نفسه، ج٢٠/ص١٢٠

يقود هذا إلى ذكر العلاقة الوطيدة بين اللغة والكتابة وبين تدوين العلوم واكتسابها، ذلك "أن تحصيل العلوم يعتمد أمورا ثلاثة: أحدها: الأخذ عن الغير بالمراجعة والمطالعة، وطريقهما الكتابة وقراءة الكتب، فإن بالكتابة أمكن للأمم تدوين آراء علماء البشر ونقلها إلى الأقطار النائية وفي الأجيال الجائية، والثاني: التلقي من الأفواه بالدرس والإملاء، والثالث: ما تنقدح به العقول من المستنبطات والمخترعات. وهذان داخلان تحت قوله تعالى: ﴿علّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾[٣٤]".

وهكذا كانت آيات القرآن التي نزلت منوهة بشأن البيان والقلم، ومعلنة عهدا جديدا من الحكمة وأنوار الهداية والإرشاد "تفسح للعقل الإنساني كل طريق من طرق البحث والتأمل، فلا تصده قط عن طريق يترقب منه معرفة نافعة.."[٣٥]، ولذلك "ما أن استقر الإسلام في البلدان التي فتحت حتى بدأت الحركة الفكرية تنمو وتزدهر، ووصلت إلى أوج عطائها زمن العباسيين، والعامل الأول في ازدهار الحياة الفكرية في الحضارة الإسلامية، تأكيد الإسلام على أهمية العلم منذ أن نزلت أول كلمة على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار حراء، وكانت "اقرأ"، ورفع جل شأنه من مكانة العلم عندما أقسم بالقلم: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[٣٦].

إن افتتاح نزول هذا القرآن بهذه الآيات التي تضمنت التنويه بشأن القلم وما يكتبه من علم نافع، كان له أثره الكبير ودلالته الواضحة، ذلك أن "الدين الذي يبدأ كتابه الكريم بكلمة اقرأ لا يمكن أن يكون إلا دينا معرفيا، أي أن يفتح صدره للنشاط المعرفي على مستوى الكون والعالم والوجود، لتأكيد القناعات الإيمانية من جهة، ولتعميق الوفاق

[٣٤] التحرير والتنوير، ج٣٠/ص٤٤١

[٣٥] الإنسان في القرآن، ص١٦١

[٣٦] الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ص٤٣٩

بين الإنسان المؤمن وبين العالم الذي يتحرك فيه[٣٧]"، وقد عد بعضهم في أسباب ازدهار نشر العلوم وتعريبها في الحضارة الإسلامية: "القرآن الكريم وحثه على التفكير وطلب العلم"[٣٨].

ولم تكن الحضارة الإسلامية التي كان القرآن روحها الباعثة للنشاط الفكري والمعرفي، بدعا من الحضارات الإنسانية عموما التي كانت في وجودها وتطورها مرتبطة "ارتباطا قويا باللغة، بحيث يمكن القول إنه لولا وجود اللغة لما قامت هذه الحضارة.. وأن الجنس البشري يمتاز على بقية الكائنات العضوية الحية بالفكر واللغة"[٣٩]، وأن "الحضارة الإنسانية لم تكن لتقوم لولا وجود اللغة.. التي هي أداة هامة من أدوات الحضارة وعامل أساسي في نشأتها واستمرارها وتطورها[٤٠]" .

ثالثا: آية التنوع والاختلاف

عد القرآن الكريم اللغة آية من آيات تنوع واختلاف ألوان الخليقة الدال على وحدانية الخالق وعظمته، وفي مقدمة المواضع التي ورد فيها ذلك صريحا، قوله تعالى في سورة الروم، في معرض ذكر آياته في النفس والآفاق: ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السّماواتِ والأرضِ واخْتِلافُ ألْسِنَتِكُم وألْوَانِكُم إنّ فِي ذلكَ لآيَاتٍ لِلعَالَمِين﴾.

ومعنى قوله:﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يقول الطبري: "واختلاف منطق ألسنتكم ولغاتها"[٤١]، ذلك أن "اللسان في الفم، وفيه اختلاف اللغات: من العربية والعجمية والتركية والرومية، واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة، فلا تكاد ترى أحدا إلا وأنت تفرق بينه وبين الآخر، وليس هذه الأشياء من فعل النطفة

[٣٧] المرجع السابق نفسه، ص١٢
[٣٨] تاريخ العلوم عند العرب، ص١١٢
[٣٩] ينظر مقال: حضارة اللغة، ص٣
[٤٠] المرجع السابق، ص٢٣
[٤١] تفسير الطبري، ج١٨/ص٤٧٩

ولا من فعل الأبوين، فلا بد من فاعل، فعلم أن الفاعل هو الله تعالى، فهذا من أدل دليل على المدبر البارئ، ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ أي للبر والفاجر"[٤٢]، كما يعقب القرطبي.

إن هذه الآية من القرآن تتضمن آية من آيات الخلق، هي اختلاف لغات الناس "من عرب وعجم، وترك، وروم وغير ذلك من اللغات، وألوانهم من البياض والسواد والحمرة والصفرة والزرقة والخضرة، مع كونهم أولاد رجل واحد وأم واحدة، ويجمعهم نوع واحد وهو الإنسانية، وفصل واحد وهو الناطقية، حتى صاروا متميزين في ذات بينهم لا يلتبس هذا بهذا، بل في كل فرد من أفرادهم ما يميزه عن غيره من الأفراد، وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلا العالمون، ولا يفهمه إلا المتفكرون[٤٣]".

وقد بين صاحب التحرير والتنوير وجه المناسبة بين ذكر خلق السماوات والأرض وذكر اختلاف الألسنة والألوان، ذلك "لأن هاته الأحوال المختلفة لهذا النوع الواحد نجد أسباب اختلافها من آثار خلق السماوات والأرض، فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة، واختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض، واختلاف مسامتة أشعة الشمس لها؛ فهي من آثار خلق السماوات والأرض[٤٤]"، ثم نسج على منوال من سبقه من المفسرين، فنبه إلى عظمة آية تنوع الألسنة، ودلالة تنويه القرآن الكريم بها، فقال: "واختلاف لغات البشر آية عظيمة، فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كونه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير وتنويع التصرف في وضع اللغات، وتبدل كيفياتها باللهجات

[٤٢] تفسير القرطبي، ج١٤/ص١٨

[٤٣] ينظر: تفسير الشوكاني، ج٤/ص٢٥٣

[٤٤] التحرير والتنوير، ج٢١/ص٧٣

والتخفيف والحذف والزيادة بحيث تتغير الأصول المتحدة إلى لغات كثيرة[٤٥]".

وهذا التنوع في الألسنة يؤصل له كذلك تعدد الشعوب والقبائل الذي ورد في سورة الحجرات، مقترنا ببيان الحكمة والمقصد منه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وجَعَلْنَاكمْ شُعُوباً وَقَبائلَ لِتَعَارَفُوا﴾، أي "إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس، ليعرف بعضكم بعضا في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقُربة تقرّبكم إلى الله، بل أكرمكم عند الله أتقاكم"[٤٦]. وهذه الآيات القرآنية –كما يقول صاحب أضواء البيان – "تدل على أن دين الإسلام سماوي صحيح، لا نظر فيه إلى الألوان ولا إلى العناصر، ولا إلى الجهات، وإنما المعتبر فيه تقوى الله – جل وعلا – وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي، ولو كان رفيع النسب"[٤٧].

فإذا كان البشر قد تعددوا شعوبا وقبائل، واختلفوا ألوانا وألسنة "فإنما كان هذا التعدد أقوى الأسباب، لإحكام صلة التعارف بينهم، وتعريف الإنسانية كلها بأسرار خلقها.. فإن تعدد الشعوب والقبائل يعدد المساعي والحيل لاستخراج كنوز الأرض واستنباط أدوات الصناعة، على حسب المواقع والأزمنة، وعلى حسب الملكات والعادات التي تتفتق عنها ضرورات العيش والذود عن الحياة، فينجم عن هذا ما لا بد أن ينجم عنه من تعدد الحضارات وأفانين الثقافة، وتزداد الإنسانية عرفانا بأسرار خلقها وعرفانا بخالقها واقترابا فيما بينها.."[٤٨].

إن اللغة في ضوء هذا الذي نزل من القرآن الكريم في شأن اختلاف ألوان الناس

[٤٥]التحرير والتنوير، ج٢١/ص٧٣
[٤٦]تفسير الطبري، ج٢١/ص٣٨٦
[٤٧]أضواء البيان، ج١٧/ص٤١٨
[٤٨]الإنسان في القرآن، ص٤٧

وألسنتهم، وتعدد شعوبهم وقبائلهم هي المظهر الدال على عظمة الخالق وبديع صنعه، حيث خلق الإنسان من نفس واحدة، وبث في الأرض من جنس هذا الإنسان بشرا كثيرا مختلف الألسنة والألوان، وجعل اللغة بذلك هي وسيلة التعارف والتعاون ونقل التجارب والخبرات بين هذه الشعوب والقبائل، لا يوجد ما يسد مسدها أو يغني غناءها في عملية تأسيس الحضارة وبناء العمران البشري، ذلك أنها هي "العامل الجوهري في إخراج الإنسان الفرد من عزلته الوجودية، وهي العنصر الفعال في تلطيف حدة انقطاع تجربة الإنسان عن تجربة أخيه الإنسان[٤٩]".

إن الحضارة –كما يلخص أحدهم – "لا تنعكس بوضوح في شيء مثلما تنعكس في الكلام واللغة.. فالخبرة الإنسانية المتراكمة على مدى الزمن تنعكس في اللغة وتجد تعبيرا لها فيها، سواء اتخذ ذلك التعبير شكل الكلام العادي، أو الكتابة المعروفة.."[٥٠] ، وبدون اللغة "يصعب قيام الحياة الاجتماعية المتماسكة المتكاملة وبالتالي يستحيل قيام الحضارة، بكلما تعنيه هذه الكلمة من نظم اجتماعية وأنماط ثقافية وقيم أخلاقية ومبادئ ومثل، بل وحياة مادية ومخترعات، لأنها هي أداة التفاهم الذي هو أساس التعاون بين أفراد الجماعة"[٥١]، فاللغة في كل زمان ومكان "هي المرتسم الحضاري للناطقين بها، وهي في صميم المعركة لدى كل احتكاك حضاري بين أمتين[٥٢]".

إن انحراف وعي الإنسان عن إدراك المزية في ما نوه القرآن الكريم به من تنوع الألسنة واختلافها، وتعدد الشعوب والقبائل، ودعوته للاعتبار بهذا التنوع واعتباره وسيلة

[٤٩]اللسانيات وأسسها المعرفية، ص٣٦

[٥٠]مقال: حضارة اللغة، ص١١

[٥١]المرجع السابق نفسه

[٥٢]نحو وعي لغوي، ص٢٦

تعارف، لا سببا للتناحر والتخالف... هو ما أدى إلى الحروب والنزاعات التي نشأت عن الخلل في فهم وتدبير آية الاختلاف اللغوي، وأدى ذلك لسعي بعض اللغات الكبرى إلى الهيمنة على اللغات الصغرى، بل ومحوها من الوجود، على نحو ما سمي بـ"الصراع اللغوي"، الذي يتضمن في كثير من صوره تحقير لغة معينة "والنيل منها بإضعافها، وخلق الكراهية للتحدث بها"[٥٣].

رابعا: خصوصية اللسان العربي

نوه القرآن الكريم باللسان الذي نزل به في مواضع متفرقة تزيد على العشرة، ورد فيها جميعا ذكر اللسان العربي، والنص على أن القرآن نزل به، ومن ذلك قوله تعالى في مطلع سورة يوسف: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وفي سورة طه: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، وفي سورة الشعراء: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، وفي سورة الشورى: ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾... وغيرها.

وما ذلك إلا لأن الله تعالى – يقول الطبري – أنزل "هذا الكتاب المبين قرآنًا عربيًّا على العرب، لأن لسانهم وكلامهم عربي، فأنزل هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوا منه"[٥٤]، فهو قرآن عربي أي "يقرأ بلغتكم يا معشر العرب"[٥٥] "لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول[٥٦]".

إن هذا المقصد الكامن وراء إنزال القرآن الكريم بلسان العرب، يجد تفسيره واضحا جليا في الغرض الأساسي من وجود اللغة، ألا وهو الإفهام والإبلاغ، فاللغة كما اشتهر من قول ابن جني: "أصوات يعبر بها كل قوم

[٥٣] اللغة وصراع الحضارات، ص١١

[٥٤] ينظر: تفسير الطبري، ج١٣/ص٦

[٥٥] تفسير القرطبي، ج٩/ص١١٩

[٥٦] نفسه، ج١٣/ص١٣٨

عن أغراضهم[٥٧]"، فهي بذلك بصمة تعريف كل قوم ووسيلة التعارف بينهم كما تقدم، ولا سبيل إلى بلوغ الغاية من إفهام الناس وإبلاغهم ما يراد منهم فهمه والعمل بما جاء فيه، إلا بمخاطبتهم باللغة التي يفهمون، ولذلك – يقول الزرقاني – لم يخرج القرآن الكريم "عن معهود العرب في لغتهم العربية من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة، بل جاء كتابا عربيا جاريا على مألوف العرب من هذه الناحية، فمن حروفهم تألفت كلماته، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه[٥٨]".

إن الناظر في لغة القرآن لا يحتاج كثير تأمل حتى يلاحظ أنه نزل بخطاب لغوي من صميم معهود كلام العرب، وما أَلِفوه في مجالسهم وأنديتهم وفي مضارب خيامهم ومراتع أنعامهم من مفردات وتراكيب، ومن أمثلة ذلك ما لاحظه بعضهم من حضور وذكر مفردات كثيرة من أسماء الحيوانات والأشياء المعروفة عند العرب في القرآن الكريم، "فقد ذُكِر الضريع، وكثير من نباتات الصحراء، والواحات، والنخيل، والأعناب والرمان.. والسدر، والتين، والزيتون.. وكذلك ذكرت أسماء أماكن جغرافية؛ مكة باسم بكة ويثرب... وكثير من أسماء الحيوانات في تلك البيئة؛ كالبعير سفينة الصحراء، والبغال، والحمير، والفيلة، والبقر... وكذلك أسماء الأشياء؛ كالأباريق، والأكواب، والبئر، وبعض السباع؛ كالقسورة، والقرد، والخنزير.. وهكذا تحضر البيئة العربية بوصفها مكان النص بموجوداتها المكانية، والنباتية، والحيوانية[٥٩]".

وما ذاك إلا لأنه – كما يقول النسفي – "لو نزّلَه بلسان أعجمي لتجافوا عنه أصلاً،

[٥٧] الخصائص، ج١/ص٣٣

[٥٨] مناهل العرفان في علوم القرآن، ج٢/ص٣٠٣- ٣٠٤

[٥٩] مقال: أثر البيئة العربية في بيئة النص القرآني، مجلة الحياة الطيبة، ع١٣/ص١٣٠

ولقالوا ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به، وفي هذا الوجه – يضيف النسفي مبينا الإشارة المهمة في قوله تعالى في آية الشعراء: ﴿..على قلبك..﴾ – أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك، تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه وتُفهِّمه قومك، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون لبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كُلِّم بلغته التي نشأ عليها لم يكن قلبه ناظراً إلا إلى معاني الكلام، وإن كُلِّم بغيرها كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها وإن كان ماهرا بمعرفتها، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين[٦٠]".

إن كون القرآن عربيا يفيد ضرورة "إبانة ألفاظه المعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء، وهم العرب، إذ لم يكونوا يتبينون شيئا من الأمم التي حولهم لأن كتبهم كانت باللغات غير العربية[٦١]"، ولأنهم كانوا أمة بيان وأئمة لسان، أجادوا قرض الشعر، وأحكموا بلاغة الخطب "كان القرآن من جنس ما يحسنون...[٦٢]"، "فكان ثروة بيانية لا تنفد، ومعينا بلاغيا لا ينضب.. وكلمهم بلغتهم فنفذ إلى قلوبهم محتفلا بالبيان...[٦٣]"، وقد ذكر لهم الله تعالى فيه "جميل بلائه في تعليم البيان، وعظيم نعمته في تقويم اللسان، فقال: ﴿الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسانَ. عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾، وقال تعالى: ﴿هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ﴾، ومدح القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ.. وقال: ﴿عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، وقال: ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾، وقال:

[٦٠] تفسير النسفي، ج٢/ص٥٨٢

[٦١] التحرير والتنوير، ج١٢/ص٢٠١

[٦٢] أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، ص١١

[٦٣] المرجع نفسه.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[٦٤]".

وبفضل هذا البيان القرآني، فقد خرجت إلى محافل التأثير الحضاري أمة كان لتنزله بلسانها الأثر الكبير في ما تبوأت من منازل المجد والعظمة، ومن نهضة علمية شاملة، تجاوزت حدود البلدان وانصهرت فيها مختلف الأعراق والشعوب والقبائل؛ "فكل مسلم يجب عليه أن يقرأ ويتلو القرآن بالعربية، وكل مسلم يتعلم ويفهم اللغة، ولكل مواطن في الانبراطورية الإسلامية حق الأخذ بنصيب في تلك النهضة العلمية التي اتخذت شكلا رائعا في ذلك العصر، والتي لم تكن وقفا على طبقة من الشعب دون أخرى[٦٥]".

لقد كان القرآن بالنسبة إلى العرب كتابا "لبست فيه لغتهم ثوب الإعجاز، وهو كتاب يشد إلى لغتهم مئات الملايين من أجناس وأقوام يقدسون لغة العرب، ويفخرون بأن يكون لهم منها نصيب[٦٦]"، وما ذاك إلا لأن القرآن الكريم نزل بها، فكان ذلك سببا مباشرا "في ظهور عدد لا يحصى من العلماء غير العرب، نبغوا في لغة العرب وعلومها من نحو وصرف وبلاغة...[٦٧]"، وفي مقدمة أولئك إمام النحو العربي: سيبويه، كما كان ذلك "عاملا نقل اللغة العربية تلك النقلة الواسعة من لغة قوم إلى لغة أقوام، ومن لغة محدودة بحدود أصحابها إلى لغة دعوة جاءت إلى البشر كافة، فكانت العربية بذلك لسان تلك الدعوة، ولغة تلك الرسالة، ومستودع ما نتج عن تلك الرسالة من فكر وحضارة[٦٨]".

[٦٤] البيان والتبيين، ج١/ص٣١-٣٢

[٦٥] شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوروبة)، ص٣٧٨

[٦٦] نحو وعي لغوي، ص٨

[٦٧] نحو وعي لغوي، ص١٢٩

[٦٨] ينظر: نحو وعي لغوي، ص١٣٠

خاتمة

إن عنصر "اللغة" مقوم أساسي لا يتصور وجود عمران بشري بدونه، وهذه الحقيقة المسلمة في حقول معرفية شتى، أبرَزَها القرآن الكريم في مواضع متعددة، وبين تفصيلا وتلميحا جوانب مختلفة منها، لخصتها هذه الورقة في جوانب أربعة، كانت اللغة بها هي:

- معجزة الخلق وسبب تكريم بني آدم وأهليتهم لنيل شرف الاستخلاف في الأرض، كما بينت ذلك قصة الإنسان الأول آدم عليه السلام، الذي أُمرت ملائكة السماء بالسجود له تشريفا وتكريما، لما نال من شرف تعلم اللغة.
- نعمة البيان التي اختص الله بها هذا الإنسان وأمكنه بواسطتها من التعبير عن نفسه والتواصل والتعاون مع بني جنسه، وبها أمسك الإنسان القلم وارتقى به في مدارج العلم، وتعلم بفضل ذلك ما لم يكن يعلم.
- آية تنوع الخليقة واختلاف ألسنتها وألوانها الدال على وحدة خالقها وبديع صنعه، وهي بذلك مهيأة لتكون وسيلة التعارف الذي نص القرآن الكريم على أنه مقصد لجعل الناس شعوبا وقبائل مختلفة.
- لسان عربي مبين، أنزل الله به ختام رسالاته وأقام به الحجة على الأميين – كما جرت بذلك سنته في إرسال كل رسول بلسان قومه – وقد كان نزول القرآن بلسان العرب سببا بارزا وعاملا مؤثرا في تحبيب العربية إلى غير العرب، وأثمر ذلك نهضة علمية وحضارية شاملة، تركت أثرا كبيرا في مسار حضارة الإنسان.

وبهذا يعطي القرآن الكريم تصورا شاملا للغة، يبرز ارتباطها الوجودي بالإنسان، وارتباطه بها كذلك، فلأجل تكريمه

وتمكينه من أسباب صلاح معاشه ومعاده علمها اللهُ آدمَ عليه السلام، وبفضلها كان الإنسان مُبينا يَفْهَم ويُفهم، وأمكنه ذلك من نيل العلوم واكتسابها، وتبادل الخبرات، والتصرف في شؤون العمران.

المصادر والمراجع

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، ٢٠٠١م، دار هجر، القاهرة.
- مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، ط٣، ٢٠٠٠م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، ١٩٦٤م، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت ٧١٠هـ)، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط١، ١٩٩٨م، دار الكلم الطيب، بيروت
- فتح القدير (تفسير الشوكاني)، محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، ط١، ١٤١٤هـ، دار ابن كثير و دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، ط ١٩٩٥م، دار الفكر، بيروت.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت1393 هـ)، ١٩٨٤م، الدار التونسية للنشر، تونس.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ)، ط٣،

١٩٤٣م، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، ط٢، د ت، دار الهدى، بيروت
- البيان والتبيين، الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، ط ١٤٢٣هـ، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- ديوان المبتدأ والخبر.. (المقدمة)، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق خليل شحادة، ط٢، ١٩٨٨م، دار الفكر، بيروت.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عمر، ط١، ٢٠٠٨م، عالم الكتب.
- أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، د محمد حسين علي الصغير، ط١، ١٩٩٩م، دار المؤرخ العربي، بيروت.
- مدخل إلى إسلامية المعرفة، د عماد الدين خليل، ط١، ٢٠٠٦م، دار ابن كثير، دمشق.
- الإنسان في القرآن، عباس محمود العقاد، ط٤، ٢٠٠٥م، دار نهضة مصر، القاهرة.
- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد النجار، ط٣، ٢٠٠٠م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا.
- الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط١، ١٩٩٨م، دار القلم، دمشق.
- شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوروبة)، زيغريد هونكه، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط٨، ١٩٩٣م، دار الجيل، بيروت.
- تاريخ العلوم عند العرب، د عمر فروخ، ط١٩٧٠م، دار العلم للملايين، بيروت.
- الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، د شوقي أبوخليل، ط ١٩٩٦م، دار الفكر، دمشق.

- نحو وعي لغوي، مازن المبارك، ط ١٩٧٩م، مؤسسة الرسالة – بيروت
- اللسانيات وأسسها المعرفية، د عبد السلام لمسدي، ط ١٩٨٦م، الدار التونسية للنشر.
- اللغة وصراع الحضارات، د أحمد عفيفي، منشورات كلية دار العلوم، القاهرة، د ت.
- مقال: حضارة اللغة، أحمد أبوزيد، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، ع١، يونيو ١٩٧١م.
- مقال: أثر البيئة العربية في بيئة النص القرآني، الشيخ علي حب الله، مجلة الحياة الطيبة، ع١٣، سنة ٢٠٠٣م.